٥٢ – باب فضل الرجاء

قَالَ الله تَعَالَى إخبارًا عن العبدِ الصالِحِ: {وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ * فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا} [غافر: ٤٤، ٤٥]

==========

قالَ الله تَعَالَى إخبارًا عن العبدِ الصالِحِ (وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ * فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا) .

(**وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ**) أي: ألجأ إليه وأعتصم، وألقي أموري كلها لديه، وأتوكل عليه في مصالحي ودفع الضرر الذي يصيبني منكم أو من غيركم.

(**إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ**) يعلم أحوالهم وما يستحقون، يعلم حالي وضعفي فيمنعني منكم ويكفيني شركم، ويعلم أحوالكم فلا تتصرفون إلا بإرادته ومشيئته، فإن سلطكم عليَّ، فبحكمة منه تعالى، وعن إرادته ومشيئته صدر ذلك.

(**فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا**) أي: وقى الله القويّ الرحيم، ذلك الرجل المؤمن الموفق، عقوبات ما مكر فرعون وآله له، من إرادة إهلاكه وإتلافه، لأنه بادأهم بما يكرهون، وأظهر لهم الموافقة التامة لموسى عليه السلام، ودعاهم إلى ما دعاهم إليه موسى، وهذا أمر لا يحتملونه وهم الذين لهم القدرة إذ ذاك، وقد أغضبهم واشتد حنقهم عليه، فأرادوا به كيدًا فحفظه الله من كيدهم ومكرهم وانقلب كيدهم ومكرهم، على أنفسهم .

٤٤٠ – وعن أَبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ أَنَّهُ قَالَ (قَالَ الله – عز وجل: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنا معه حَيْثُ يَذْكُرِنِي، وَاللهِ، للهُ أَفْرَحُ بِتوبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ يَجِدُ ضَالَّتَهُ بِالفَلاَةِ، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْرًا، تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا، تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِذَا أَقْبَلَ إِلَيَّ يَمْشِي أَقْبَلْتُ إِلَيْهِ أُهَرْوِلُ) متفقٌ عليه، وهذا لفظ إحدى روايات مسلم. وتقدم شرحه في الباب قبله.

ورُوِيَ في الصحيحين: «وأنا معه حين يذكرني» بالنون، وفي هذه الرواية

«حيث» بالثاء وكلاهما صحيح.

==========

١–قوله (**قَالَ الله – عز وجل: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي**) .

في هذا الحديث حسن الظن بالله .

ومَعنى حُسن الظن بالله: أن تأملَ من الله ما تطلبه منه .

قال القرطبي : قيل معنى ظن عبدي بي؛ يعني: ظن الإجابة عند الدعاء، وظن القَبول عند التوبة، وظن المغفرة عند الاستغفار، وظن المجازاة عند فِعل العبادة بشروطها تمسُّكًا بصادق وعده جل وعلا.

فمن أحسن ظنه بالله آتاه الله إياه.

لقوله ﷺ (يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي) .

وفي المسند قال ﷺ (إن الله عز وجل قال: أنا عند ظن عبدي بي، إنْ ظن بي خيراً فله، وإن ظن شراً فله).

والمعنى: أعاملُه على حسب ظنه بي، وأفعل به ما يتوقعه مني من خير أو شر.

وقال عبد الله بن مسعود (والذي لا إله غيرُه، ما أُعطي عبدٌ مؤمن شيئاً خيراً من حسن الظن بالله عز وجل، والذي لا إله غيره، لا يحسن عبد بالله عز وجل الظن إلا أعطاه الله عز وجل ظنَّه، ذلك بأنَّ الخيرَ في يده) رواه ابن أبي الدنيا في حسن الظن.

قال سهل القطعي رحمه الله (رأيت مالك بن دينار رحمه الله في منامي، فقلت: يا أبا يحيى ليت شعري، ماذا قدمت به على الله عز وجل؟ قال: قدمت بذنوب كثيرة، فمحاها عني حسن الظن بالله) رواه ابن أبي الدنيا.

وعن أبي بكر ﷺ قال (قلت للنّبيّ ﷺ وأنا في الغار: لو أنّ أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا. فقال: «ما ظنّك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما) متفق عليه.

ومعنى حُسن الظن بالله عَز وجل: هو اعتماد الإنسان المؤمن على ربّه في أموره كلها، و يقينه الكامل، وثقته التامة بوعد الله ووعيده، و إطمئنانه بما عند الله، و عدم الاتكال المطلق على تدبير نفسه وما يقوم به من أعمال.

وحسن الظن بالله من مقتضيات التوحيد : لأنه مبنيٌ على العلم برحمة الله وعزته، وإحسانه وقدرته، وحسن التوكل عليه، فإذا تم العلم بذلك أثمر حسن الظن.

قال ابن القيّم : كلما كان العبد حَسن الظَّن بالله، حَسن الرَّجاء له، صادق التوكُّل عليه: فإنَّ الله لا يخيِّب أمله فيه البتَّة؛ فإنَّه سبحانه لا يخيِّب أمل آملٍ، ولا يضيّع عمل عاملٍ، وعبَّر عن الثقة وحُسْن الظَّن بالسَّعة؛ فإنَّه لا أشرح للصَّدر، ولا أوسع له بعد الإيمان من ثقته بالله، ورجائه له، وحُسْن ظنِّه به.

وقال أيضًا: فعلى قدر حُسْن ظنِّك بربِّك ورجائك له، يكون توكُّلك عليه؛ ولذلك فَسَّر بعضهم التَّوكُّل بحُسْن الظَّن بالله، والتَّحقيق: أنَّ حُسْن الظَّن به يدعوه إلى التوكُّل عليه، إذ لا يُتَصَوَّر التَّوكُّل على من ساء ظنك به، ولا التَّوكُّل على من لا ترجوه.

فإن قيل: ما الفرق بين حسن الظن بالله والغرور؟

قال ابن القيم: حسن الظن إن حمل على العمل وحث عليه وساق إليه؛ فهو صحيح، وإن دعا إلى البطالة والانهماك في المعاصي؛ فهو غرور.

قال ابن القيم رحمه الله في وصفه لحال هذا الصنف من الناس: فأكثر الخلق بل كلهم إلا ما شاء الله يظنون بالله غير الحق ظن السوء، فإن غالب بني آدم يعتقد أنه مبخوس الحق ناقص الحظ وأنه يستحق فوق ما أعطاه الله، ولسان حاله يقول: ظلمني ربي ومنعني ما أستحق ونفسه تشهد عليه وإن كان لسانه ينكره ولا يتجاسر على التصريح به. ومن فتش نفسه وتغلغل في معرفة دفائنها وطواياها رأى ذلك فيها. ولو فتشت من فتشته لرأيت عنده تعنتاً على القدر وملامة له، وأنه ينبغي أن يكون كذا وكذا، فمستقل ومستكثر". اهـ.

٤٤١ – وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: أنه سمع رسول الله ﷺ قبلَ مَوْتِه بثَلاثَةِ أَيّام، يقولُ (لاَ يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلاَّ وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بالله – عز وجل) رواه مسلم.

==========

١-الحديث دليل على استحباب تنبيه المحتضر على إحسان الظن بالله.

قال النوويّ : قَالَ الْعُلَمَاء : هَذَا تَحْذِير مِنْ الْقُنُوط ، وَحَثّ عَلَى الرَّجَاء عِنْد الْخَاتِمَة ، وَقَدْ سَبَقَ فِي الْحَدِيث الْآخَر قَوْله سُبْحَانه وَتَعَالَى: (أَنَا عِنْد ظَنّ عَبْدِي بِي) قَالَ الْعُلَمَاء: مَعْنَى (حُسْن الظَّنّ بِاَللَّهِ تَعَالَى) أَنْ يَظُنّ أَنَّهُ يَرْحَمهُ وَيَعْفُو عَنْهُ، قَالُوا: وَفِي حَالَة الصِّحَّة يَكُون خَائِفًا رَاجِيًا ، وَيَكُونَانِ سَوَاء، وَقِيلَ: يَكُون الْخَوْف أَرْجَح .

وقال المناويّ رحمه الله: "لا يموتنّ" بنون التوكيد "أحد منكم، إلا وهو يحسن الظن بالله"؛ أي: لا يموتن أحدكم في حال من الأحوال، إلا في هذه الحالة، وهي حسن الظن بالله تعالى، بأن يظن أنه يرحمه، ويعفو عنه؛ لأنه إذا حضر أجله، وأتت رحلته، لم

يبق لخوفه معنًى، بل يؤدي إلى القنوط، وهو تضييق لمجاري الرحمة والإفضال، ومن ثَمّ كان من الكبائر القلبية، فحُسن الظنّ، وعِظَم الرجاء أحسن ما تزوّده المؤمن لقدومه على ربه. انتهى .

٢-مِنَ الأحوالِ المهِمَّة التي يُغلِّبُ فيها العبدُ جانِبَ الرَّجاءِ على جانِبِ الخَوفِ :

أولاً : حال الموت .

قل إبراهيم النخعي : كانوا يستحبون أن يلقنوا العبد محاسن عمله عند موته لكي يحسن الظن بربه .

قال النووي : فَإِذَا دَنَتْ أَمَارَات الْمَوْت غَلَبَ الرَّجَاء أَوْ مَحْضه ؛ لِأَنَّ مَقْصُود الْخَوْف : الِانْكِفَاف عَنْ الْمَعَاصِي وَالْقَبَائِح ، وَالْحِرْص عَلَى الْإِكْثَار مِنْ الطَّاعَات وَالْأَعْمَال ، وَقَدْ تَعَذَّرَ ذَلِكَ أَوْ مُعْظَمه فِي هَذَا الْحَال ، فَاسْتُحِبَّ إِحْسَان الظَّنّ الْمُتَضَمِّن لِلِافْتِقَارِ إِلَى اللَّه تَعَالَى ، وَالْإِذْعَان لَهُ ، وَيُؤَيِّدهُ الْحَدِيث الْمَذْكُور بَعْده (يُبْعَث كُلّ عَبْد عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ) وَلِهَذَا عَقَّبَهُ مُسْلِم لِلْحَدِيثِ الْأَوَّل . قَالَ الْعُلَمَاء : مَعْنَاهُ : يُبْعَث عَلَى الْحَالَة الَّتِي مَاتَ عَلَيْهَا ، وَمِثْله الْحَدِيث الْآخَر بَعْده (ثُمَّ بُعِثُوا عَلَى نِيَّاتهمْ) .

ثانياً : عند الأزمات، والملمات، والتضحيات، وكثرة الفتن، وتقلب الأمور، وغلبة الديون، وضيق العيش ومثل ذلك .

ففي الحديث: (من نزلت به فاقة فأنزلها بالله يوشك الله له برزق عاجل أو آجل) رواه أبو داود .

وذكر القرآن حال الأنبياء في حال الشدائد العصيبة من حسن ظنهم بربهم ويقينهم وثقتهم بوعده، عقيدة راسخة وليست خواطر عابرة .

قال موسى لقومه لما قالوا (إنا لمدركون قال كلا إن معي ربي سيهدين فأوحينا إلي موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم) .

وقال محمد ﷺ للصديق يوم جاء أعداؤه إلى الغار لا تحزن إن الله معنا ، وقال: يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ .

ثالثاً : عند الدعاء .

من كانت علاقته بالدعاء قوية هانت عليه المصائب، وتيسرت له السبل، وبورك له في كل شيء يسلكه .

ففي الحديث الشريف (لن يهلك مع الدعاء أحد) . أخرجه الحاكم .

قال عمر : إني لا أحمل هم الإجابة ولكن أحمل هم الدعاء، فإذا أُلهِمت الدعاء فإن الإجابة معه .

رابعاً : عند التوبة .

يوقن المسلم بسعة رحمة الله، وأنه يقبل التوبة عن عباده وأنه يعفو عن السيئات.

جاء الفضيل إلى سفيان الثوري في يوم عرفة وقال له: من أسوأ الناس حالا في هذا اليوم؟ قال: من ظن أن الله لا يغفر لهم.

لأن هذا من سوء الظن بالغفار الذي وسعت رحمته كل شيء.

٣-الحثّ على العمل الصالح المفضي إلى حسن الظن.

قال بعض العلماء: ينبغي عند الموت أن يغلب جانب الرجاء، وفي حال الصحة يغلب جانب الخوف، لأجل أن يحمله خوفه على الاستقامة.

٤-حِرْص النبيّ ﷺ على إرشاد أمته، وشدة رأفته بها في جميع أحواله؛ حتى في مرض موته ينصح أمتَه ويدلُّها على مسالك النجاة.

٥-قال الطيبي: أحسنوا أعمالكم الآن حتى يَحْسُنَ ظنُّكم بالله عند الموت، فإنَّ مَن ساء عملُه قبل الموت يَسوء ظنُّه عند الموت.

٦-التحذير من القنوط .

٤٤٢ – وعن أنس ﷺ قَالَ: سمعت رسول الله ﷺ يقول (قَالَ الله تَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ مِنْكَ وَلاَ أُبَالِي. يَا ابْنَ آدَمَ، لَوْ بَلَغَت ذُنُوبُك عَنَانَ السَّماءِ، ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلاَ أُبَالِي. يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَقَيْتَنِي لاَ تُشْرِكُ بِي شَيْئًا، لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً) رواه الترمذي، وقال: «حديث حسن».

«عَنَانُ السَّماءِ» بفتح العين، قيل: هو مَا عَنَّ لَكَ مِنْهَا، أيْ: ظَهَرَ إِذَا رَفَعْتَ رَأْسَكَ، وقيل: هو السَّحَابُ. وَ «قُرَابُ الأَرض» بضم القاف، وقيل: بكسرها، والضم أصح وأشهر، وَهُوَ: مَا يقارب مِلأَهَا، والله أعلم.

==========

١- في هذا الحديث الأسباب التي تحصل بها المغفرة ، وهي ثلاثة :

السبب الأول : الدعاء مع الرجاء

فإن الدعاء مأمور به ، وموعود عليه بالإجابة .

قال تعالى (وقال ربكم ادعوني أستجب لكم) .

والدعاء عبادة .

قال ﷺ (الدعاء هو العبادة) رواه أبو داود .

والله يغضب إن لم يسأل .

قال ﷺ (من لم يسأل الله يغضب عليه) رواه ابن ماجه .

وينبغي حضور القلب ورجاء الإجابة ولا يستعجل الإجابة .

قال ﷺ (يستجاب لأحدكم ما لم يعجل يقول دعوت فلم يستجب لي) متفق عليه .

وللداعي إحدى ثلاث :

قال ﷺ (ما من مسلم يدعو بدعوة ليس له فيها إثم أو قطيعة رحم ، إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث : إما أن يعجل له دعوته ، وإما أن يدخرها له في الآخرة ، وإما أن يكشف عنه من السوء مثلها) رواه أحمد .

السبب الثاني :وهو الاستغفار .

وهو طلب المغفرة ، والمغفرة هي وقاية شر الذنوب مع سترها .

وقد أمر الله به .

قال تعالى (واستغفر الله إن الله كان غفوراً رحيماً) .

وقال تعالى (واستغفر لذنبك) .

ومن أسماء الله : الغفور ، والغفار .

قال تعالى (نبيء عبادي أني أنا الغفور الرحيم) .

وقال تعالى (ألا هو العزيز الغفار) .

ومهما عظمت ذنوب الإنسان فإن الله يغفرها لمن تاب .

قال تعالى (إن ربك واسع المغفرة) .

والأنبياء وأهل الفضل يطلبون المغفرة من الله .

قال تعالى عن نوح (رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات) .

وقال الخليل (والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين) .

وقال موسى (قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له) .

ومدح المستغفرين .

فقال تعالى (والمستغفرين بالأسحار) .

والنبي ﷺ كان يكثر من الاستغفار .

قال ﷺ (والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة) رواه البخاري .

السبب الثالث : التوحيد ، وهو السبب الأعظم .

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله : الإنسان إذا أذنب ذنوباً عظيمة ثم لقي الله لا يشرك به شيئاً غفر الله له ، ولكن هذا ليس على عمومه لقوله تعالى (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) فقوله هنا في الحديث (لأتيتك بقرابها مغفرة) هذا إذا شاء ، وأما إذا لم يشأ فإنه يعاقب بذنبه .

وقد تقدمت فضائل التوحيد .

٢- التحذير من الشرك (وقد سبقت خطورته) .

٣- أنه لا يسلم أحد من الذنوب .

٤- وجوب الإيمان بلقاء الله ، لقوله (لقيتني) .

وقد قال تعالى (فمن كان يرجو لقاء الله فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) .

وقال تعالى (يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه) .

فملاقيه : أي ملاقي ربك ، وقيل : ملاقي عملك .